الفن والمجتمع

الدكتور ابراهيم ناجي

سادتي الأفاضل : المشكلة ليست في هل الفن لنفسه أو للمجتمع ، وإنما المشكلة في كلمة الفن وكلمة المجتمع . سنحاول أولاً أن نعرف ما هو الفن وثانياً ما هو المجتمع . فإذا وفقنا في التعريف فقد يمكن أن نصل إلى نقطة يتلاقيان عندها ، في المبدأ أو في النهاية أو في الوسط ، فإذا تلاقيا ، فالواحد منهما للآخر ، ما في ذلك جدال ، وإذا لم يتلاقيا ، فليمض كلٌّ في طريقه وليعش كلٌّ لذاته ، وليبق كلٌّ لنفسه ... ما هو الفن ؟؟ لقد صارت هذه الكلمة غامضة مبهمة وغدت تطلق على أشياء كثيرة لا علاقة لها بصميم الأمر وجوهره

الحياة فن ، والتفكير فن ، والعمل فن ، حتى أن أندريه موروى في كتابه عن فن الحياة ، يعقد فصلاً خاصًّا عن فن المشيب l'art de vieillir

ثم تدخل المطاعم والمقاهي والصالونات الفخمة ، فتجد المقاعد المنوعة والأنوار المختلفة ، وتجد الأثاث مرتباً بشكل « فني » ، وحتى المشمعة تجدها وقد أقيمت على قاعدة شكل « فني » ثم تدخل بيوت الموسرين وذوي الجاه فتلتقي عيناك باللوحات الزيتية ، وبالصور المذهبة الألوان ، وترفع عينيك إلى الستائر التي تغطي النوافذ ، وإلى الرسوم التي في السقف ، وإلى النقوش التي على الجدران والأبواب فتجد كل هذا معدوداً من « الفن » ...

أما الطراز الأول فمعناه أن الفن هو الاتقان . ومعنى الطراز الثاني أن تراكم الألوان واختلاف الأضواء والحصول على اللوحات الغالية والمقاعد الأثرية ، تدعى فناً ، والصواب أنها مظهر من مظاهر الترف ، وعنوان على البذخ ، ودليل على أن صاحب هذا الشيء أو ذاك متميز بمكانه الاجتماعي .. وليس الأول فناً ، ولا الثاني ، والفن من هذا وذاك بريء ...

وفهم الفن على هذه الصفة مفسدٌ لأصوله ، مضيعٌ لجوهره ، ذاهبٌ بمعناه

والفن على حقيقته شيء واضح لا يجب أن يكتنفه الغموض ، ولا يجب أن يختلط بالاتقان المحض ، ولا بالألوان البراقة والأضواء الخادعة والظلال الكاذبة ...

لقد ذهبت استقصي جميع تعاريف الفن ، عند المفكرين والفلاسفة ، فأحببت أن أعرض على حضرائكم خلاصة تلك التعاريف وفي هذا العرض لذة وفائدة

اولاً التعريف العلمي عن شيلر وداروين وسبنسر

(١) الفن نشاط خاص منشؤه الحاسة الجنسية والميل الى اللعب ومصحوب بتأثير سار في المجموع العصبي

اما ان منشؤه الحاسة الجنسية فيكفي للدلالة على ذلك الالوان البديعة والازهة الرائعة التي تكسو بعض الحيوان ، وتكون على اتمها في الربيع وتلك الاغاني والاغاريد المنسابة من حناجر طائفة عاشقة في مواسم التناسل . . اما تأثيرها السار في المجموع العصبي فذلك ما لا جدال فيه

(٢) التعريف العملي : هو التعبير عن العاطفة بواسطة الخطوط او الالوان أو الخطوات أو الاصوات أو الكلمات

(٣) تعريف سلّي : وهو احدث التعريفات ، هو الاتيان بأمر ثابت او عابر يحدث السرور في نفس المحدث لذلك الأمر ، مع تأثير سار في الناظرين أو المستمعين بلا اعتبار لأي فائدة شخصية ، وجميع تلك التعاريف على ما فيها من الالمام مع الايجاز تتحدث عن الفن من ناحية السرور الحادث والتجرد من الغاية ، وقد اشار التعريف الاول اشارة جانبية الى الجمال ، ولم يشر اليه الثاني ولا الثالث ، وبقي امر هام جداً لم يشر اليه احد من هؤلاء السادة ، وهو الغاية التي يرمي اليها الفن في حياة الانسان والمجتمع

وسأفصل هذه النقطة الاخيرة ، حيث انها في رأيي كل شيء ، كل الموضوع . اما الآن فلأتابع عرض تعاريف المفكرين الذين لهم أثر بعيد في تاريخ الفن او فلسفته

يقول هيجل واتباعه : الجمال هو اشراق الفكرة من خلال المادة . والجمال هو جمال الروح ، والروح لا بد لها من مظهر مادي ، والفن هو الذي يجلو هاته الفكرة ، ليعبر عن اهم مشكلات الانسانية وأجل حقائق الروح

فالحق والجمال عنده شيء واحد ، غير ان الحق هو الفكرة مستقرة ، والجمال هو الفكرة مجلوّة ظاهرة ، والفن هو الذي يعبر عن الحق والجمال وهما واحد . . . ويجيء تلميذه فيشر ، فيقول ان الفن هو مزج الذات بالموضوع وادماج الفرد في الكل ، أي جمع شمل المتناقضات وهذا هو الجمال . واما مدرسة هربرت فتقول ان الجمال ما هو الا نسبة . . . وعلى الفن ان يكتشف هاته النسب . واما شبنهاور فيمزج الجمال بالارادة ، قائلاً ان للارادة طبقات مختلفة والتجرد من الذات لتأمل تلك الطبقات يحدث الشعور بالجمال ، والفنان هو الذي يملك القدرة على التأمل ، والنزوح الى الطبقات العالية !

اما شيلر فيذهب مذهب جيرت آلن وهربرت سبنسر فيقول ان الفن نوع من اللعب ، في الحيوانات السفلى ينصرف كل جهد الحيوان الى المحافظة على الحياة والنوع ، اما في الانسان فيتوفر شيء دائماً اما من القوة البدنية فتنصرف الى اللعب، وإما من القوة الروحية فتنصرف الى الفن وبقيت مدرسة بوجارتن وهي المدرسة التي اكتسحت بآرائها باقي المدارس ، وأصبحت آراؤها هي السائدة . ان الجمال — في رأيها — هو الكمال منظوراً من خلال الحواس ، والحق هو الكمال منظوراً من خلال العقل ، والخير هو الكمال منظوراً من خلال الاخلاق ... والجميل هو ما تتناسب فيه علاقة الحق بالخير، وعلاقة الجزء بالكل، والفن هو الذي يكتشف أحسن هذه النسب وهي على اتمها في الطبيعة وأروع النتائج هي تلك النسبة ... وملخص هاته الآراء ، ان الفن اما ان يكون شيئاً نفعياً خلقياً ملائماً للخالق، واما أن تكون غايته الجمال فحسب، واما ان يكون معبراً تعبيراً صادقاً عن الواقع . ولماذا كل هذه التفريع ؟ أما شخصياً فأجد الفن أبسط وأحلى من كل ذلك وهاته البساطة هي سر عظمته ومتعته . ان المنظر عظيم ببساطته وقلة تعقيده ، ونافع عن غير عمد ومؤثر بدون أن يتكلف التأثير . فماذا نبحث في الفن عن صلته بالخير والحق ، وهما من صلبه وفي صميمه . هذا اذا اخذنا نستعرض الفن وكيف نشأ ولأي غرض ، واذا فهمنا الحدود التي تفصل الفن العالي من الفن التجاري والرخيص ..

أقدم آثار الفن وجدت في الكهوف وقد تركها الانسان الاول كانت نحتاً أو نقشاً في الصخر أو من الصخر ولما اخترع الانسان الكلام عبر بالصوت وفي خلال جميع العصور عبر بالحركة وهي الرقص . كان الفن في أول أمره تعبيراً وكان تعبيراً عن عاطفة . وكانت تلك العاطفة حبّاً أو اعجاباً أو عبادة . كانت قرباناً لحبيب أو معبود أو اله . . .

على أن ذلك النقش ، ذلك النحت الكسيح ، تلك الرقصة المكونة من ايقاع متكرر ، تحمل آلاف المعاني ، تحمل اختصار الاحساس الشامل في صورة مركزة ، تحمل في طواياها دفع قوة خالقة مسيطرة ، وتحمل كذلك عبقرية ساذجة وطابع حيّ

ان ذلك الدافع الاول ، ما زال يتكرر حتى الآن في الفنان واني لألمسه الآن وأشرحه لكم كشاعر ، قد تمر بي الايام متشابهة رتيبة ، كل يوم كغيره ، وكل منظر لا يتغير عن سابقه، ثم التي بشخص ، أجد فيه معنى من معاني الجمال ، أحس بقوة خارقة فوق اختياري تدفعني الى التعبير . هذه القوة تسمى بالانكليزية Creative-impulse — قوة الخالق ، وهناك خلق حقيقي ؟ هل نحن نخلق حقيقة ؟ انا في الواقع نتصيد الخيال في عالم معمور بالجمال تمر به العيون ولا تفهمه ولا تلتفت اليه . أجل نقع على معنى خاص ، على فكرة مستقرة ، فنأخذها لنجلوها وننكسوها كالعروس ، ثم نقدمها قرباناً لمن نحب . . . أخذنا جمال العالم فحصرناه في

لفظة أو تعبير أو بيت ، طويناه بالتأمل وجعلناه خاصتنا ، أخرجنا جمالاً صنعناه من جمال العالم المنبث العام ، وفرحنا به كما يفرح الطفل باتقاء لعبة من مجموعة لعبه ... ثم قدمناها لمن نحب أو نعبد . فاذا كانت فناً — اذا كانت خلقاً — انمحت الحواجز التي بيننا وبينه — نفذنا الى قلبه — تمزقت الحجب — اندمج الواحد في الآخر ، ذلك هو الفن ...

***

كان أناتول فرانس يستمع الى شاعر . فلما انتهى الشاعر من القائه قال لمن حوله ان هذا لا بد أن يكون رائعاً ، اني لم أفهم شيئاً ولكنه نفذ الى قلبي فارتجفت ، والفن ارتجاف ...
L'art est tremblement

منذ سنوات سافرت لأزور معرضاً للفن في فينيسيا . وكنت أدمن التأمل في الرسوم والتماثيل لأقف على سر الفن العظيم . فقد مرت علي أيام قبل ذلك وأنا مزعزع اليقين . فرأيت في مدخل المعرض تمثالاً يدعى «الحنان» Tendresse لمثال مجهول . يا لله ويا للسماء أي حنان على أي تعروفي أي امرأة ! انها تحدثك وتناجيك وتطوف حولك بروحها ، وترحب بك وتفهمك وتعطيك وتؤويك وتستبقيك ... أجل والله صنعت بي كل هذا فكنت أجلس عند قدميها عندما يفتح المعرض وأنصرف عندما يغلقونه لأعود في اليوم التالي الى ذراعي «الحنان» ...

سألت نفسي طويلاً ما في هذا التمثال ؟ لماذا أحببته ؟ وأنا لا أعرف القواعد الفنية التي تشرح لك لماذا هذا جميل وذاك قبيح ، لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها ، حسبي أنه نفذ الى قلبي وخاطبني ، ان مصدره قلب نابض مشابه لقلبي ، واحساسه احساسي وخواطره خواطري ، لذلك نفذ الي تواً بلا استئذان ... وآية تلك البساطة البادية فيه ، وتلك اللغة العامة الشاملة التي يخاطب بها الفن الفرد العادي ، انه من عواطفه نشأ ومن احساساته نبع ومن قلبه تفجر ، ولذلك يعود اليه كما صدر عنه ... ذلك هو الفن الكبير : اللغة العامة الشاملة ، التي تستقي من روح الانسان ومن روح الطبيعة ، لتخاطب الفرد وتؤدي اليه رسالة القلب وحديث العاطفة وهي لا تحسن تأدية الرسالة إلا اذا قوي الدافع وبين الغرض وصفا المنبع . إن الحنان في الواقع نتيجة لكل تلك العوامل مجتمعة . وليس محدوداً ولا معروف المقاييس ، وانما هو الأثر العام الذي تحدثه تلك اللغة العامة السماوية . هذا هو الفن وتلك رسالته

***

ما هو المجتمع ؟ المجتمع طبقتان طبقة السراة والحكام ، وطبقة الأفراد العاديين . أما الطبقة الأولى فليس لي حديث معها ، وانها وان كانت شجعت الفن وقامت له بدور الحامي في كثير من الاوقات فاني لا أؤمن بذلك التشجيع ولا تلك الحماية فانهما مظهران من مظاهر الوجاهة والسلطان

والفن ليس هؤلاء تسلية ، وإن كان يرى قصورهم ، ويعرض في دورهم ، ولكنه عندهم كذلك مظهر من مظاهر الأبهة . إني أرجح تعدي الفن هو أنا وأنت : نحن أنا وأنت وآلامنا وإحساساتنا وآمالنا وحزننا وبهجتنا وأوقات الترحيب وأوقات مسراتنا ، المجتمع حياتي وحياتك أيها الصديق : حياتي وحياتك تضيق يوماً وتتسع آخر ، وتشرق فيها الشمس حيناً وتغرب حيناً . وهي مادته التي يتسلمها الفنان ومنها يأخذ مادته موسيقى أو رسماً أو نحتاً أو شعراً ، ثم يردها إلينا ، فإذا كانت منا وردت إلينا فنحن نفهمها بلا واسطة ولا مترجم وهي بقدر ما تحدث فينا السرور والراحة بما تعبر عنه من خوالجنا ، فهي تعلمنا الرشاقة في الحنان ، والجلال في الألوان ، والايقاع البديع في الرقص ، وترينا كل هذا فنراه مكرراً بأعين باطننا لأنه صادر عنا ، وعندما يفد الفن إلينا ، تنتقل إلينا منه عدوى تسمى عدوى الفن أي أننا بقدر ما يمدنا الفن يلهمنا ويسحرنا ويدفعنا إلى العمل الطيب النبيل السامي الذي عنه صدر ومنه انبثق . . .

فالفن هو تلك الرسالة التي ذكرتها ، والمجتمع هو أنا وأنت ونحن وآلامنا تلهم الفنان وتعطيه مادته ، فكيف لا يكون الفن للمجتمع هذا هو المجتمع ، فالفن منه وله . والآن ما هي خدمة المجتمع ؟؟ وماذا نريد بها ؟؟ خدمة المجتمع قسمان ، قسم مادي ، وقسم غريب عن المادة ، أما المادة ، وأقصد بالمادة ذلك الشيء الذي يجعلنا نشبع أجسادنا وشهواتنا السفلى وهذا الشيء يمكن الحصول عليه من أي طريق غير الفن . أما الفن الذي يؤدي الخدمة للمجتمع ، فإنما يؤدي خدمة روحية ، وإذا قلت روحية فقد قلت أخلاقية ، لأن سمو الروح ينعكس تواً على الأخلاق ، فيظللها ويجملها ويكملها . . . ما هي هذه الخدمة الروحية ؟؟ إنه من الثابت الذي لا جدال فيه : أن الحياة أمواج من السرور والألم ، وأن الألم هو الموجب ، والسرور هو السالب ، ومن الثابت أيضاً أننا نعيش بعقلين الواعي ، والباطن ، والواعي هو مركز التفكير والإرادة ، وهما سبب الألم والمتاعب فهو موجب ، أما الباطن ، فهو موطن المسرات ، فهو السالب ، أي هو الوطن الذي تهرب فيه النفس من موجب التفكير والإرادة إلى العالم السلبي الذي نرجع فيه إلى خيالنا وشعورنا وأحلامنا . والفن الكبير يخاطب هذا الجزء من نفسنا ، يتجاوز الوعي ، يتخطى التفكير والإرادة ، يتكلم مع موضع الراحة والسرور والرضى وكل فن يخاطب العقل ليس بفن

من هنا ينشأ السرور الذي هو غاية الفن ومبتغاه ، الراحة الكبرى التي ذكرها أبو تمام وشوقي ، وعرفاها بالإلهام الشعري العجيب

هذه هي الخدمة الأولى الكبرى للفن ، وحسبكم ذلك الأثر ، أثر السكون والرضى

والسرور والانشراح ، أثر التعدد في ذلك ، ثم التعدد في التفكير والارادة وما يحتملان من شقاء وآلام . ولكن الفن لكي يحدث ذلك لابد أن يكون متميزاً بوحدة الفكرة ، وتركيز الغرض

خذوا فن العمارة ، على كل بناء فخم يدعى فناً . خذوا الهرم ، خذوا هياكل الكرنك . خذوا معابد آبائنا المصريين ، هل تحسبون الرهبة التي تتولانا ونحن نرى الى تلك الهياكل مجرد أمر عارض ؟ كلا ، ان روح هذه الهياكل أو المعابد « الرهبة » وكل حجر في أي موضع ، وكل نقش في السقوف أو الجدران ، حتى الاعمدة ، انما هيئت لتحمل روح الرهبة ، أي أن الفن يجب أن يبذل روحاً خاصاً ، أن مجرد النقل من الطبيعة ، مجرد البناء ، مجرد الشدو بالاغنية ، ان لم يحمل روح الغرض ، لا ينفذ الى أرواحنا . وهذا هو السر في أن أكثر المعروض اليوم على أنظارنا ، لا يمكن أن يخدعنا بالفخامة ولا بالالوان ولا بالاضواء . ان النيل لا يعبر عن شيء بمجرد رسمه كنهر يجري . وان الاشجار التي على شاطئيه أن رسمت كمجرد اشجار لا تعبر عن شيء . أعطني المصري الصميم الذي يعطي مياه النيل روح مصر الخالدة العريقة ، والاشجار روح مصر الوديعة الرقيقة ، أعطني هذا وانا أسجد مسروراً لفنه

***

اذا نفذت هاته الروح الى روحي ، فقد حدث ما قد سبق الى الفنان الحق وهو يصوره ، حدث ما يسميه شوبنهاور وحدث زواج الفن ان الشيء يغدو أنثى ، والفنان يكون ذكراً بكل معنى الرجولة ، ويعقب ذلك زواج ، ويعقبه حمل فميلاد فخلق !

فاذا كان غرض الطبيعة في الأصل خدمة المجتمع بواسطة انتشار النسل ، والعمران وازدهار الربوع ، واذا كانت الطبيعة تتحايل من أول الخليقة على ذلك الأمر وتنصب له الشراك والفخاخ وكل حيوان انما يعمل لذلك التناسل ، كل حي يعمل له ، فاذا فرغت بعد ذلك ، انصرفت الى زواج أعلى ، وظل الخلق جارياً ولكنه من طراز سماوي . وغايته أروع من ذلك الغرض الأول ، ان الغرض الأول يقتضي الجري والسعي ، والتعب والكد والجهد ، وأما الغرض الثاني أي زواج الفنان بموضوعه ، ثم اندماج الفنان في الناظر الى أثره الفني ، — غرضه ، ذلك الخلق المتكرر والميلاد المتصل ، خلق المعجزات ، التي تخاطب الاحساس والشعور والخيال ، وتثبت بدورها أن الله القدير لم يخلق شيئاً عبثاً ، وأن الله الذي خلق هذا المجتمع ، لم يخلق الفنان عبثاً ، وانما ليخدم المجتمع خدمة تعلو بماديته عن الطين ، وتصعد بروحه الى آفاق النور وأبراج الاسرار الالهية وماذا تريدون خدمة للمجتمع بعد ذلك . . . .